



بينما يسعى مبعوث الأمم المتحدة إلى سورية، ستيفان دي ميستورا، إلى جمع أطراف المعارضة السورية على برنامج حوار لا يعرف أحد مآلها وماذا ينتظره فيه، يعمل الإيرانيون، بأقصى ما يستطيعون من عزيمة وسرعة، لاستغلال التردد والغموض والتجاذبات القوية في الموقف الدولي، من أجل تكريس أمر واقع على الأرض السورية، يضمن ما يعتبرونها مصالحهم الاستراتيجية في المستقبل، من دون أدنى مراعاة حتى لمصالح حليفهم الأسد في الحفاظ على الحد الأدنى من مظاهر السيادة والاستقلال.

فبعد أن وضعوا يدهم على مقاليد السلطة والأمر العسكري في سورية، من خلال تقديم الميليشيات الطائفية و”الحسود الشعبية” وتمويلها وتدريبها على حساب تطوير الجيش السوري، وسيطراً لهم على قطاعات عسكرية عديدة، وعلى غرف العمليات في جبهات القتال، وجديدها ما نشرته الصحفة، في الأسبوع الماضي، من وثائق عن وضع اللواء 47 دبابات المتمرذ في ريف حماة تحت سيطرة الحرس الثوري الإيراني، بقرار من وزير دفاع الأسد، يبدون الآن في عجلة من أمرهم لتوسيع دائرة حضورهم المادي والبشري في المناطق والمدن الاستراتيجية التي يعتقدون أن عليهم الحفاظ عليها مستقبلاً، في إطار تقسيم محتمل لسوريا، وتشكيل محمية إيرانية على شاطئ المتوسط الشرقي.

#### سورية من دون سوريين:

في هذا السياق، تدخل حرب الإيرانيين المستمرة في القلمون منذ أشهر طويلة، وفيه يبرز تمكّنهم في مفاوضات الهدنة التي جمعتهم مع وفد من ”أحرار الشام“ بإخلاء الزيداني وكامل مدن وقرى الغوطة الشرقية ووادي بردى من سكانه ”السنة“، لإعداده لعملية استيطان جديدة بسكن يدينون لهم بالولاء، من المذهب الشيعي، عرباً كانوا أو آسيويين. وفي هذا السياق أيضاً، يأتي إعلان ”مواليهم“ من نظام الأسد، في الأسبوع الماضي، عن بدء تنفيذ مشاريع في المدن المستهدفة، في حمص ودمشق خصوصاً، تدخل تحت مسمى تنظيم المدن وإعادة الإعمار، وهي، في الواقع، مشاريع مقنعة لعمليات التطهير العرقي وتغيير البنية السكانية للمناطق.

وقد نشرت صفحة ”دمشق الآن“، المحسوبة على أحد أفرع مخابرات النظام، قبل أيام، صوراً لتصميمات مشروع إعادة إعمار حمص الذي سيقام على مساحة 217 هكتاراً، ويضم 465 موقعاً سكنياً، إضافةً إلى مباني الخدمات ”المشافي والمدارس والمباني الاستثمارية والتجارية والترفيهية“، وهو يشمل ”إعادة إعمار“ أحياه بابا عمرو وجوبر والسلطانية، وهي

مناطق كانت قد دمرت بالكامل، وهجر أهلها، ومنعوا من العودة إليها، بعد أن شهدت أ بشع مجازر النظام بحق سكانها خلال النصف الأول من 2012.

وفي الوقت نفسه تقريراً، أعلنت محافظة دمشق التابعة لحكومة الأسد عن البدء بتنفيذ ما سمي مشروع حلم دمشق، وفي مقدمه بناء المجمع الإيراني الضخم الذي يغطي مناطق واسعة من حي المزة المكتظ بالسكان وسط العاصمة دمشق. وانطلقت، في اليومين الماضيين، بالفعل عمليات هدم منازل المدنيين في منطقة "بساتين المزة"، بينما منعت قوات الأمن التي كان يرافقها محافظ دمشق السكان من الاقتراب من منازلهم بالقوة، وأخرجت من تبقى في المنازل عنوة، ورممت مقتنياتهم وفرشهم في الشارع. وكان سكان المنطقة قد تلقوا إنذارات بالإخلاء في منتصف يونيو/حزيران الماضي، فيما لم يتلق السكان، حتى الآن، أي تعويض أو بدل سكن أو منزل للإيجار.

وكانت مليشيات حزب الله، وحليفتها العراقية التي احتلت مدينة القصرين، قد منعت سكان هذه المدينة وريفها من العودة إليها، وأحلت مكانهم مستوطنيين من جنسيات أخرى تابعين لها. ولا تزال مدن عديدة في المنطقة وقرها مغلقة على سكانها، ومنها مدينة حمص القديمة التاريخية التي تنتظر من دون شك مشاريع "إعمار" مماثلة. ويأتي هذا الجهد الاستيطاني ليكمل، أو ليuros عن خسارة مشاريع عديدة، كانت طهران، قد عملت عليها في العقود الثلاثة الماضية، قبل ثورة مارس/آذار 2011، وبنت، في إطارها، مئات المراكز الدينية والحسينيات في مختلف البقاع، وفي أكثر المناطق تجانساً مذهبياً، وذلك لإيجاد وقائع مادية على الأرض، تحفظ نفوذ طهران، وتفرض الأمر الواقع المرتبط بها. وتعتبر منطقة السيدة زينب قرب دمشق مثلاً لهذا الاستيطان الجديد الذي حول قرية صغيرة إلى مدينة ضخمة، تحتضن أكبر تجمع مذهبي عسكري ومدني طائفي متعدد الجنسيات في المنطقة.

وتستخدم حكومة الحرس الثوري في إيران النظام السوري، بعد أن ورطته في حرب خاسرة، وحشرته في الزاوية، من أجل خلق وقائع جديدة صلبة لا يمكن تغييرها. وهي تستفيد من تعبئة المهاجرين الشيعة في إيران نفسها من الأفغان والباكستانيين وغيرهم، وتستثمر الشعور بنشوة النصر لدى طائفة وجماعات عانت طويلاً من الشعور بالعزلة والهامشية والحرمان، من أجل قلب الأوضاع السياسية داخل المنطقة رأساً على عقب، وإعادة رسم الخرائط الجيوسياسية على حسب مطامعها وأحلامها.

### بين إعادة الإعمار والاستيطان

تشكل مجموع هذه النشاطات، من تدمير منهجي للمدن والقرى وتهجير إجباري للسكان وتفریغ البلاد من سكانها، وتوطين أكبر عدد ممكن من الساكنين الأجانب، من إيران وباكستان وأفغانستان ولبنان والعراق والهند وغيرها، وحرمانهم من حقوقهم ومنعهم من العودة وتدمير منازلهم وبيئتهم الطبيعية وحرق قراهم ومحاصيلهم وخصخصة الأملك العامة وسطو المليشيات الأجنبية عليها، واحتلال منازل الغائبين وإجلاء السكان عن أحياهم ومدنهم، مما أطلق عليها من أسماء، ومهما قدم لها من تبريرات، مشروعًا متكاملاً للتطهير العرقي والإحلال السكاني وتمديد رقعة الاستيطان، بهدف تمكين دولة أجنبية من السيطرة على مقدرات الشعب السوري، وانتزاع حقه في تقرير مصيره وفرض مصالحها وأجندها الإقليمية والدولية عليه. وهو إحلال سكاني مرتبط بمخطط استراتيجي للهيمنة الإقليمية، يستخدم جميع الوسائل، وأكثرها همجية ووحشية، من قتل وتمثيل وتعذيب واغتصاب لتحقيق هدفه. وهو يعكس التفكير الاستراتيجي الإيراني الراهن الذي يعتقد أن إبادة سورية العربية الراهنة الطريق الوحيدة من أجل إحلال سورية أخرى محلها، سورية إيرانية، تخضع لطهران وتندمج فيها، وتحول إلى واحدةٍ من محافظاتها.

وهذا وحده ما يمكن أن يفسر التكتيك الحربي الوحشي الذي استخدمه قادة الحرس الثوري المؤطرون لجيش الأسد ومليشياته، وهو تكتيك لا يبقى فرصة لأي حوار أو تفاهم أو تسوية بين السوريين، ولا يمكن أن يقود إلا إلى تدمير البلاد وتقسيمها. فمن دون التدمير الشامل والمنظم للبيئة الاقتصادية والاجتماعية والإنسانية، والاستهداف اليومي للمدنيين، والقضاء على كل أمل في الحياة بتصفيف المشافي والأسواق الشعبية والمدارس، وفرض الحصار والتجويع وقطع الماء والكهرباء ومواجهة السكان بالأسلحة الكيميائية وكل أنواع العنف الممكنة، ما كان من الممكن تفريغ المدن والمناطق من ساكنيها، وتبييضها، وقطع أي أمل لهم بالبقاء، وإجبار أكثر من نصف سكان البلاد على الرحيل عن منازلهم ومدنهم، وتركها خاوية لمن يريد أن يستوطنها.

ولا ينفصل هذا المشروع، أيضاً، عن طبيعة الاستراتيجية التي بنتها قيادة الأسد، بتوجيهات من قادة الحرس الثوري الإيراني وخبرائه، القائمة على عدم الدخول في أي حوار أو تسوية، والاستمرار في الحرب أطول فترة ممكنة، وتعطيل كل المبادرات العربية والدولية. فليس هناك أي ضمانة في أن تنجح سلطة الاحتلال في تغيير الواقع، وفرض الأمر الواقع الجديد على الأرض، من دون التخفي وراء لهيب الحرب وتبثیر خرق كل القوانين والعقود الوطنية والدولية والإنسانية، فمن نافل القول إن حرب كسر العظم التي اتبعتها القوى الحليفـة في سوريا تجاه الشعب الثائر والمعارض ليست في مصلحة النظام، ولا في مصلحة الطائفة التي يدعىـيـ النظام حمايتها. ولا يوجد مستفيد حقيقي منها سوى سلطة الاحتلال وحلم التوسيـع الإـيراني.

ليس لهذه العمليـات الممنهجـة أي علاقـة بإـعادة الإـعمـار، وليس هناك أي منطق في إـطلاق عمـلـية إعادة إـعمـار من طرف واحد، وبمساعدة الحكومة والشركات الإـيرانية وحدهـا، ولا لبناء مساكن ومشافـ وآسـوقـ، بينما تقوم البرامـيل المتفجرـة والمدفعـة والصوارـيخ الاستراتيجـة بـتدمـير مـثـيلـها كل يوم في جميع المـدن والأـنـحـاء السـورـية. وليس هناك منطق في فرض الأمر الواقع، وتوسيـع دائـرة الاستـيطـان للجماعـات المرـتبـطة بـطـهرـان، في الوقت الذي يطلق فيه المـبعـوث الدولـي وـروسـيا مـفاـوضـات التـسوـية السـيـاسـية، إلا إذا كان الـهدف قـطـعـ الطريق على أي مـفاـوضـاتـ، وـدفعـ المـعـارـضـةـ إلى رـفـضـ المـشارـكةـ فيهاـ.

ما يحصل تحت اسم إعادة الإـعمـار هو تـأكـيد على منـطـقـ الحـربـ، وتوسيـعـ دائـرـتهاـ لتـشـمـلـ عمـلـياتـ التـوـطـينـ وـتجـريـدـ السـورـيينـ منـ مـلـكـياتـهمـ، لـخـدـمةـ أـهـدافـ استـراتـيجـيةـ، وـهوـ يـعـكـسـ سيـاسـةـ الـهـربـ إـلـىـ الأـمـامـ، وـيـشكـلـ بـرهـاناـ قـاطـعاـ علىـ غـيـابـ أيـ إـرـادـةـ لـلـاخـرـاطـ فيـ حلـولـ سـيـاسـيةـ.

تكـادـ سيـاسـةـ "أسـدـ طـهرـانـ"ـ، وـطـهرـانـ نـفـسـهـاـ، تـتطـابـقـ تـاماـ معـ سـيـاسـةـ تـلـ أـبـيبـ فيـ فـلـسـطـينـ وـتجـاهـ الـفـلـسـطـينـيـينـ الـذـينـ لاـ تـرـىـ وـسـيـلـةـ لـلـتـعـالـمـ معـهـمـ سـوـيـ الحـربـ، لإـبعـادـهـمـ وـتـهـيـجـهـمـ، أوـ إـخـضـاعـهـمـ لـمـشـيـتـهـاـ منـ دـونـ أيـ تـسـوـيـةـ أوـ تـفـاهـمـ عـلـىـ حلـ.ـ وـإـذـاـ تـحـدـثـ عـنـ السـلـامـ وـالـمـفـاـوضـاتـ، فـلـيـسـ ذـلـكـ بـهـدـفـ التـوـصـلـ إـلـىـ تـسـوـيـةـ، تـضـمـنـ وـلـوـ الحـدـ الأـدـنـىـ منـ الـحـقـوقـ السـيـاسـيةـ لـلـفـلـسـطـينـيـينـ، وـإـنـماـ لـكـسـبـ مـزـيدـ منـ الـوقـتـ، لـلـتـمـكـنـ منـ طـردـهـمـ وـاستـكمـالـ مـشـروـعـ الـاسـطيـطـانـ الـكـامـلـ لـفـلـسـطـينـ، وـلـيـسـ فـيـ تـصـورـ الإـسـرـائـيلـيـينـ أيـ مـكـانـ لـلـفـلـسـطـينـيـينـ فيـ فـلـسـطـينـ، باـسـتـثـنـاءـ الـاختـفاءـ فيـ تـجـمـعـاتـ مـغلـقةـ وـمـعـزـولةـ عـنـ بـعـضـهـاـ، تـمـاماـ كـمـاـ حـصـلـ لـلـهـنـودـ الـأـمـيرـكـيـينـ.ـ وـكـمـاـ تـنـقـضـ الـحـكـومـةـ الإـسـرـائـيلـيةـ عـلـىـ الـأـرـاضـيـ الـفـلـسـطـينـيـةـ لـتـصـادرـهـاـ، وـتـعلـنـ مـشـارـيعـ مـسـتوـطنـاتـ جـديـدةـ، رـدـاـ عـلـىـ أيـ عـمـلـ فـلـسـطـينـيـ قـويـ ضـدـ الـاحـتـلاـلـ، تـرـسلـ طـهرـانـ وـدـمـشـقـ بـرـامـيلـهـاـ الـمـتـفـجـرـةـ وـآلـتهاـ الـدـموـيـةـ الـرـهـيـبةـ، لـتـزـرعـ الـدـمـارـ وـالـرـعـبـ فيـ أيـ بـلـدـةـ أوـ مـدـيـنـةـ تـرـجـعـ عـنـ سـيـطـرـتـهـاـ، لـتـجـبـرـ سـكـانـهـاـ جـمـيـعـاـ، أوـ أـغـلـبـيـتـهـمـ السـاحـقـةـ عـلـىـ النـزـوحـ وـالـهـجـرـةـ حـفـاظـاـ عـلـىـ أـرـواـحـهـمـ.

وـكـمـاـ الـحـالـ فـيـ الـمـسـأـلـةـ الـفـلـسـطـينـيـةـ، لـنـ يـكـونـ لـمـفـاـوضـاتـ شـكـلـيـةـ، تـنـظـمـ لـلـتـغـطـيـةـ عـلـىـ فـشـلـ الـأـمـمـ الـمـتـحـدةـ وـعـلـىـ تـعـارـضـ

المصالح الإقليمية والدولية، أي قيمة، ولا أي دور في وقف العنف وإيجاد حل للنزاع، بمقدار ما سوف تستغل من محور الحرب في طهران ودمشق، لكسب مزيد من الوقت، والتغطية على مشروع التقسيم والاستيطان المرتبط به، قبل وضع السوريين والعالم أمام الأمر الواقع. وعلى الذين يعتقدون أن المفاوضات ربما تخلق ديناميكيتها، كما يقول دي ميستورا والمُبَخِّرون لمبادرته، نسوق مثال المفاوضات الفلسطينية الإسرائيلية المستمرة منذ أكثر من ربع قرن، من دون أي نتيجة تذكر، سوى تمدد الاستيطان اليهودي في الأراضي الفلسطينية، والمزيد من التعنت والتشدد ضد الفلسطينيين من الساسة والرأي العام الإسرائيلي، وبناء مزيد من جدران العزل العنصري التي يشكل وجودها واستمرارها إدانة للعالم أجمع.

### لا حل من دون إرادة دولية قوية:

ما لم تبرز إرادة دولية قوية لوضع حد للحرب، وتسمية المسؤول عن استمرارها وإيقاد نارها بالاسم، وتحديد مسؤوليات الأطراف، وإظهار الرغبة في الانخراط الجدي وتقاسم المسؤوليات تجاه محن الشعب السوري من الأطراف الدولية، وخاصةً الدول الديمقراطية، لن يكون هناك أي حل، وسوف تحول المفاوضات إلى سراب يدفع السوريين إلى الركض وراءه من دون أن يجدوا أمامهم سوى الحرب المستمرة، وفي ظلها تحقيق طهران مزيداً من التطهير المذهبي والإثنى الذي تسعى إليه في المناطق الاستراتيجية التي تريد البقاء فيها.

والحال، كما حصل بالنسبة لفلسطين، لا تبدي الدول أي إرادة في الانخراط، ولا في تحمل المسؤولية، ولا تبدي أي موقف واضح من أطماع طهران التي هي اليوم المؤقدة الرئيسية في نار الحرب، وتکاد هذه الدول تكون فاقدة العزيمة، وراضية عن التضحية بمبدأ الحق والقانون والعدالة، وقابلة للتخلّي عن التزاماتها الدولية في مقابل الحفاظ على مصالح سياسية أو تجارية أو استراتيجية، تتطوّي عليها العلاقات الحسنة مع طهران وموسكو وبعض العرب الضالين.

وكما أنه لم يوجد من يقول لتل أبيب كفى تهرباً وتوسعاً واعتداء على حقوق الفلسطينيين، ويتخذ الإجراءات التي تفرضها مواليف الأمم المتحدة لحماية هذه الحقوق، لم نر اليوم من بين الدول الكبرى والصغرى التي تحفي انتهازيتها وأناييتها وراء كلمات الحل السياسي المعسولة، من يعترف بما تقوم به طهران في تمديد أمد الحرب الأهلية، لخدمة مصالح لا تخفيها هي نفسها عن أحد، ولا من يطالبها بالتوقف عن اللعب بمصير السوريين، وسحب قواتها وميليشياتها من سورية، وإدانة دفاعها عن رئيس قاصر، دانته جميع تقارير المنظمات الدولية بجرائم ضد الإنسانية وجرائم إبادة جماعية. وطالما استمرت الدول، وفي مقدمتها الولايات المتحدة وروسيا، في تجاهل حقوق الشعب السوري والتضحية بها، لتعزيز تحالفها أو تعونها أو تفاهمها مع طهران، لن يكون هناك حل، وسوف يستمر السوريون في الدفاع عن حقوقهم والعمل بكل الوسائل لوضع حد للتدخل الإيراني وجميع التدخلات الأجنبية التي دمرت حياتهم وأحرقت وطنهم.

لن ينجح الإيرانيون في تحقيق حلمهم الدموي، ولن يحول جورهم دون استمرار السوريين في الدفاع البطولي عن حقوقهم وهو يتهم وبالدهم، ولا دون انتصارهم الحتمي. لكنهم سوف يخلفون جرحاً غائراً في سورية والضمير العربي والعالمي، تماماً كما هو جرح فلسطين الذي لا يدمل ولن يدمل قبل أن تقلع إسرائيل عن سياسة الإبادة القومية التي اتبعتها، وتعتذر عن ماضيها وأخطائها.

المصادر: